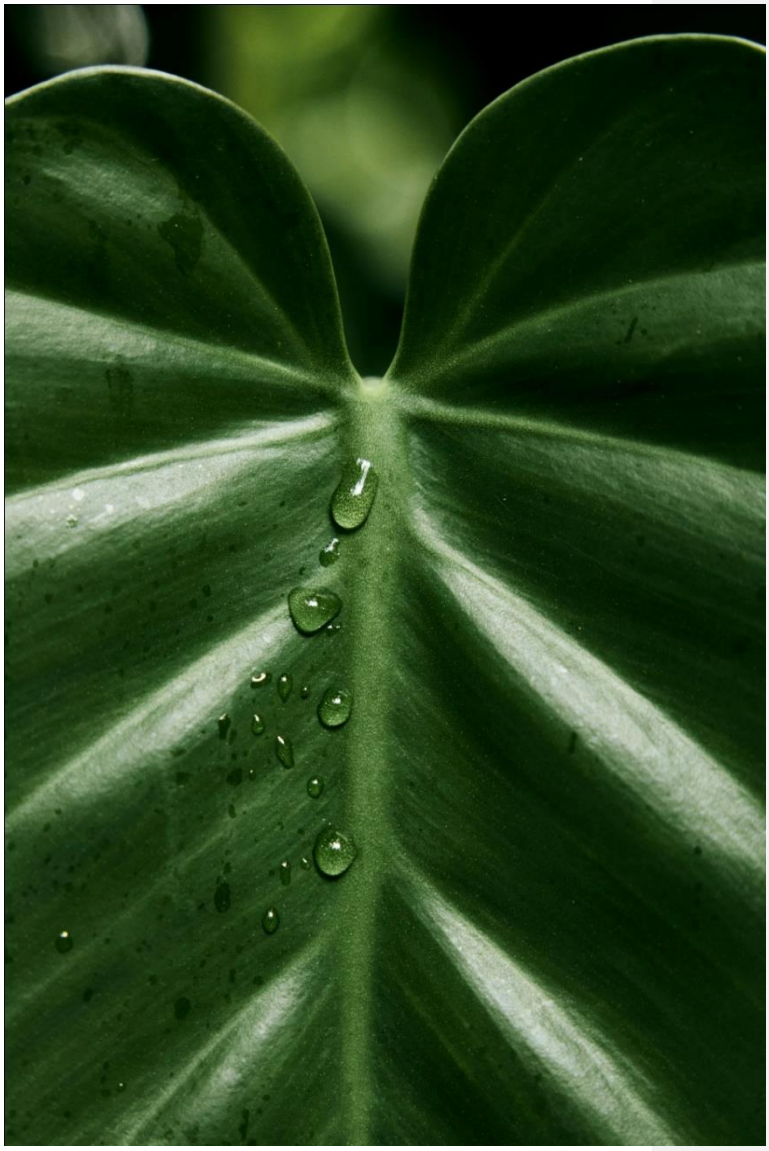

و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

استمطارُ الرَّحَمات

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٦/ ٥/ ١٤٤٣ هـ

"استمطارُ الرَّحَمات"

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه ونستهديه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا، ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنّ مُحمَّدًا -صلّى الله عليه وسلّمَ- رسولُ اللهِ.

أمّا بعد..

ففي وسط حياتنا الماديّة التي نعيشها، وفي هذا الزّحامِ من الرّوتين اليوميّ سواءٌ في البيتِ أو في العمل، فإنّنا نكاد لا نشعرُ بالوقت، الوقتُ الذي ينقضي من أعمارنا بلمحِ البصر، وفي ظِلّ ذلك تشعر بين الفينةِ والأخرى أنّك بحاجةٍ ماسّةٍ إلى قليلٍ من الرّحمة تارةً، وإلى كثير منها تارةً أخرى، وتشعرُ أحيانًا بأنّك تريدُ أنْ تقولَ للدّنيا: تريّثي قليلًا؛ لنلتقطَ أنفاسَنا.

- **عَظَمَةُ رحمةِ اللهِ تعالى:**

كلُّنا بحاجةٍ إلى هذه الرّحمة؛ كبارًا وصغارًا، آباءً وأبناءً، لذلك دعونا نلتمسْ شعورَنا بهذا الاحتياجِ المُلِحِّ إلى خالِقنا عزَّ وجلَّ عن طريقِ القرآنِ الكريم:

إنّ أكثرَ سورةٍ وردَ فيها اسمُ اللهِ (الرّحمن) سورةُ (مريم)، حيثُ تكرّر ستَّ عشْرةَ مرّةً، وهذه المعلومةُ -في الحقيقة- تَختصرُ نصفَ ما سنقوله اليوم؛ ذلك أنَّ هذه السّورة لم تتحدّث عن فضائلِ (مريم بنتُ عِمران)، ولا عن ذلك الخيرِ العظيمِ الذي اختصّها اللهُ تعالى به، فذاك ذُكِرَ في قوله تعالى :﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ على نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢)، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التّحريم: 21) "

أمّا في سورةِ (مريم) لم يذكرُ اللهُ عزّ وجلّ من قصّتِها إلّا ابتلاءَها، وقد ذكرَه بشكلٍ مُفصَّلٍ عندما نفخَ فيها الرّوح، وفي ذلك الامتحانِ الإلهيِّ درسٌ عظيمٌ حولَ ماهيّةِ الابتلاءاتِ والفِتَنِ التي نتعرّضُ لها في حياتِنا، والتي قد تكونُ -في جوهرِها- عينُ الرّحمة.

فعندما تعرّضتْ (مريم) لهذا الابتلاءِ تمنّتِ الموت، يقول اللهُ عزّ وجلّ: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (مريم:23).

كانتْ مريمُ فتاةً صغيرةً، فقيل إنّها بلغتْ ست عشرة سنة من العمر، وقيل خمسَ عشرة، وقيل ثلاثَ عشرة، لذلك لم تكن مُدركةً لتعيشَ ذلكَ الإحساس، إحساسَ الحملِ ومِن غير زواجٍ، والولادةَ بمكانٍ بعيدٍ عن أهلِها.

يقول الله تعالى: "فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا" (مريم:22).

بالإضافةِ إلى شعورِها بالخوفِ من كلامِ النّاسِ الذين سيتبادرُ إلى أذهانِهم أنّها حملتْ نتيجةَ علاقةٍ محرّمةٍ والعياذُ باللهِ، تلك الفتاةُ الطّاهرةُ العفيفةُ التي نذرتْها أمُّها للهِ عزّ وجلّ ولخدمةِ المسجد، تلك الفتاةُ النقيّةُ التي لم تنظرْ لوجهِ رجلٍ قطّ باستثناءِ زوجِ خالتِها وغيرِه من محارمِها، فتأمّل كلَّ تلك الضّغوطات النّفسيّةِ والجسديّةِ التي كانت تعاني منها.

وفي هذه السّورة عِبَرٌ كثيرةٌ، أهمُّها: الحكمةُ وراءَ ابتلاءِ (مريم)، فمن المؤكّدِ أنّ السّببَ وراء ذلك الألم، منحها خيرًا كثيرًا، حيثُ وُهِبتْ (عيسى)، النبيّ الأخير قبل نبيّنا محمّد ﷺ، ولذلك قال اللهُ عزّ وجلّ عن عيسى -عليه السّلام-: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم:21).

ومن الجديرِ بالذّكرِ أنّ الله سبحانه وتعالى ابتدأ سورةَ (مريم) بالرّحمة، فقال جل جلاله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ٢)، وأنهاها بالرّحمةِ أيضًا، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (مريم:٦٩).

ولذلك فإنّك إنسانٌ ضعيفٌ جدًا من غير رحمةِ الله عزّ وجلّ، لدرجةِ أنّك -من دونِها- لا تستطيعُ أنْ تحملَ نفسَك على أداءِ صلاةِ الفريضة، وتصبحُ العبادةُ ثقيلةً على صدرِك، أمّا في أوقاتٍ أخرى في رمضانَ -مثلًا- تجدُ نفسك تستطيعُ العبادةَ حتّى لو صلّيتَ مئةَ ركعةٍ في اليومِ الواحد.

فما الفرق؟ فأنتَ نفسُك، وقوّتُك نفسُها، لكنّ الاختلافَ هو رحمةُ الرّحمنِ التي تنزّلتْ عليك هنا، واختفتْ هناك.

ذكر اللهُ سبحانه وتعالى الحمدَ متوسّطًا بين رحمتين؛ الأولى في الآية الأولى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، والرّحمةُ الثّانية في الآية الثالثة: ﴿الرّحمنِ الرّحِيم﴾، ولذلك قيل: إنّ تكرارَ اسمِ الله (الرّحمن) في أولى سورِ القرآن العظيم، يدلُّ على أنّ المؤمنَ دومًا بين رحمتين؛ فأمّا الرحمةُ الأولى فهي التي تبلغُك، وأمّا الرحمةُ الثّانية فهي الرّحمةُ التي تقبلك وتثبّتك.

فما أحوجَنا إلى الهدايةِ إلى طريقِ الحقِ والصّواب! ومن ثُمّ ما أحوجَنا إلى تثبيتِ ما اهتدينا له من الحقّ! لذلك ندعو اللهَ الهدايةَ بكلِّ ركعةٍ، وبكل مرةٍ نقرأ الفاتحةَ بقولنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، نظرًا لحاجتِنا الماسّةِ لها.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، أَنَّهُ قَالَ: احْفَظُوا عَنِّي مَا أَقُولُ لَكُمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى الله عَليهِ وسَلمَ يَقُولُ: "إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ"[1]، فعلّمه النّبي ﷺ هذا الدّعاء.

[1] أخرجه ابنُ حبّان في صحيحه، وقال الألباني: صحيح لغيره.

- **موجِباتُ رحمة الله تعالى:**

يجب أن يتيقّنَ العبدُ أنّ الله تعالى أرحمُ الرّاحمين، فلا يوجد أرحمُ منه مهما كان حول الإنسان أناسٌ يحبّونه ويحفظونه، وأذكر -مثالاً على رحمة الرّحمن- قصّة مرورِ النّبي ﷺ على السَبي بعد إحدى المعارك، وإذ بامرأةٍ تركضُ بينهم -وهي تمسك صَدرها- تبحث عن رضيعٍ لها، فكلما وجدتْ رضيعًا ألقمَتْهُ صدرَها، حتى وجدت صغيرها فأخذته بقوّةٍ وألقمته صدرَها، فقال النّبيّ ﷺ:«أترون هذه طارحة ولدها في النار» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2].

وردَ في الآيات القرآنيّة والأحاديثِ النبويّة عدّةُ موجباتٍ لرحمةِ الله تعالى، منها:

<u>أوّلًا: الاستغفارُ:</u>

لقد حَضّنا إلهُنا عزّ وجلّ -لتحصيل رحمته- على الاستغفار بكلِّ زمانٍ ومكانٍ، في القلق والتّوتر، وفي لحظاتِ الضّياعِ والخوف...

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النّمل:46).

<u>ثانيًا: ارحمْ تُرحَمْ:</u>

فكما أنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، وكريمٌ يحبُّ الكرماء، فهو رحيمٌ أيضًا ويحبُّ الرُّحماء، وهذه الكلمةُ مهمّةٌ جدًّا ليس فقط في الدّنيا، بل بموقفٍ عصيبٍ يوم القيامة، وبالذّات عندما يُحبَس النّاس على القنطرةِ بعد اجتيازِهم الصّراط.

وفي ذلك الوقت سيتمُّ الحسابُ وَفق الحسناتِ والسيّئات، فلا يدخلُ الجنّةَ من بقي في خاطره شيءٌ على أخيه، يقول ﷺ:"الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ"[3].

كما أنّ إسباغَنا الرّحمةَ فيما بينَنا، وتوادُّنا وإخلاصنا لبعضنا، شيءٌ مهمٌّ وضروريٌّ، قال النّبيّ ﷺ:"مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا"[4].

---

[2] أخرجه البخاري في صحيحه.

[3] أخرجه التّرمذي في سننه، وصحّحه الألباني.

[4] أخرجه أبو داود في سننه، وصحّحه الألباني.

فمن لا يرحمُ الصّغيرَ ويعرفُ حقَّ الكبيرِ، فليس من أمّة محمّد ﷺ، وهذه القضيَّةُ في الرّحمة جانبٌ تعبُديّ من صميمِ الدّين وليستْ فقط جانبًا أخلاقيًّا.

والاقتصاصُ آنذاك ليس بالأموال، بل بالحسناتِ والسيّئات، وعندها ستعلمُ إنْ كنتَ مُفلِسًا أم غنيًّا، يقول ﷺ:"أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ»؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[5].

فلن يفوّتَ ظلمًا ظلمتَه، ولا معصيةً اقترفتَها، حتّى وإنْ كنتَ نسيتَ ما اقترفتْ يداك، فقد أحصاهُ الله لك.

يقول جل جلاله: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة: 6).

وفي ظِلّ تلك الظّروفِ الصّعبة، وانكشافِ المظالمِ فينا بين النّاس "يتغافرون التبعات بما استودعت قلوبهم من الرحمات " كما يقول السلف، فمَن كان في قلبِه رحمةٌ في الدّنيا على الخلق، فإنّها حتمًا ستنفعُه في الآخرة، فيؤدّي اللهُ العزيزُ الحقوقَ عنهم، فيضاعفُ لهم حسناتِهم حتّى لا تفنى.

عَنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليمان، قَالَ: " أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي"[6].

ثالثًا: القرآنُ الكريم:

فإذا كنتَ من أهلِ القرآن، وإذا التصقتَ به كانت الرّحمةُ لك أقرب، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:82).

[5] أخرجه التّرمذي في سننه، وصحّحه الألباني

[6] أخرجه مسلم في صحيحه.

واستمطارُ رحمةِ اللهِ بوساطةِ القرآن يكون بأكثرَ من طريقةٍ:

١- بتلاوتِه: فعليك الحرصُ والاجتهادُ في تلاوةِ القرآن، وجعلِها عبادةً يوميةً، وإيّاكَ أنْ تهجرَه، وحبّذا لو تربط ذلك بصلاتك وبمواضعها، لأنّ أماكنَ الصّلاةِ من الأماكنِ التي تَستجلِب الرّحمات؛ لأنّ الملائكةَ تصطف فوقك وليس لها إلّا أن تقولَ: "اللّهمَّ اغفرْ له، اللّهمَّ ارحمْهُ".

٢- الاستماعُ لتلاوته بإنصات، قال تعالى: ﴿وإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: 204).

كما أنّ الملائكةَ ترى نورًا في الأرض كما يرى البشرُ نورَ النّجومِ في السّماء، إلّا أنّ النّورَ الذي تراهُ الملائكة هو البيوتُ التي يُتلَى فيها القرآن.

عَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَتَرَائى لِأَهْلِ السَّمَاءِ، كَمَا تَتَرَاءَى النُّجُومُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ"[7].

٣- فهمُه، وإدراكُ معانيه، والاجتهادُ في دراستِه، وترجمة محتواهُ إلى واقع، واقتداؤكَ به.

رابعًا: الصَّلاةُ على النّبيّ:

قال الله عزّ وجلّ :﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: 56).

إنّ صلاةَ اللهِ عزّ وجلّ على النّبيّ ﷺ: رحمةٌ له، وصلاةُ الملائكةِ عليه: استغفارٌ له، وصلاةُ البشرِ عليه: دعاءٌ له.

وكان الصّحابةُ -رضوان الله عليهم- يفتتحونَ دعاءَهم ويختتمونَه بالصّلاةِ على النّبيّ؛ لِمَا في ذلك من فضلٍ في قبولِ الدعاءِ واستجابتِه.

خامسًا: الدُّعاءُ:

أكثِرْ من الدّعاءِ للهِ تعالى بأنْ يرحمَك، ويغفرَ لك، ويعفو عنك... فكان النّبيّ صلى الله عليه وسلم إذا كربَه أمرٌ يستغيثُ فورًا برحمةِ الله.

فعن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِفَاطِمَةَ: "مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَأَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ اسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، ولاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ"[8].

[7] أخرجه البيهقي في شُعَبِ الإيمان.

كان عمرُ بنُ عبدِ العزيز -رحمه الله- يقول في دعائِه: "اللّهمَّ إنّ رحمتَك وسعتْ كلَّ شيء، وأنا شيءٌ، فارحمني".

سادسًا: الإحسانُ والإتقان:

فعلى المسلمِ إذا عمل عملًا أنْ يتقنَه، ويتميّزَ به، ويُحسنَ إليه، لأنّ عملَ المسلم عبادةٌ لله تعالى، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56).

سابعًا: مجالسُ الذِّكر:

لا شكّ في أنّ حضورَ المسلمِ مجالسَ الذّكرِ يقرّبُه من الله تعالى، ويحبّبُه إليه، يقول رسول الله ﷺ:"....، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،..."[9].

قال الشيخُ ابنُ باز -رحمه الله-: "أيُّ مكانٍ يقرَأُ فيه العبدُ كتابَ اللهِ عزّ وجلّ، أو يتدارسُ فيه العلمَ الشّرعيَّ إلّا وقد يتفضَّلُ اللهُ عليه بهذا الفضل".

ثامنًا: عدمُ القنوطِ من رحمتِه تعالى:

لا يمكنُ لأحدٍ أن يبحثَ عن رحمةِ اللهِ تعالى ولا يجدُها، يُروَى أنّ (حمّاد بن سَلَمَة) زارَ (سفيان الثوري) أحدَ أئمّةِ البخاريّ في مرضِه، فسألَه سفيان: "يا أبا سَلَمَة أترى أنّ اللهَ يغفرُ لمثلي؟ فقال له حمّاد: واللهِ لو خُيّرتُ بين محاسبةِ أبي وأمّي لي، وبين محاسبةِ اللهِ لي لاخترت الله؛ فإنّ اللهَ أرحمُ بي من والدَيّ". وهذا من فقهِ المعرفةِ استنادًا إلى الحديث الشّريف:" لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا.[10]"

فسيّدُنا يونس -عليه السّلام- ابتلعَه الحوت، فشملتهُ الرّحمةُ في ظلماتٍ ثلاث، وسيّدُنا إبراهيم -عليه السّلام- طلبَها وهو في النّار فأصبحت له بردًا وسلامًا، ووصلتْ إلى سيّدنا يوسفَ -عليه السّلام- وهو طفلٌ صغيرٌ وهو في الجبّ، وجاءته البِشارة: لتُحدّثنّهم بهذه القصّةِ بعد حين...

وسيّدُنا يعقوب -عليه السّلام- لم ييأسْ من اللّقاء بابنه يوسف -عليه السّلام- رغمَ مرورِ السّنين الطِوال...

[8] أخرجه البزّار في مسنده، وحسّنه الألباني.

[9] أخرجه مسلم في صحيحه.

[10] أخرجه البخاري في صحيحه.

- **موجباتُ نقمةِ اللهِ تعالى:**

إنّ الحقَّ -سبحانَه وتعالى- خلقَ الكونَ بحكمةٍ لا محدودةٍ، فمثلما جاءتْ آياتُ الرّحمةِ جاءتْ آيات العذاب، فعلينا أنْ نكون أُناسًا متوازنين نتعبّدُ اللهَ عزّ وجلّ على جناحَي الرّجاء والخوف.

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ التّاريخَ يحفلُ بأمثلةٍ كثيرةٍ عن أممٍ كانت آمنةً مُطمئنّةً، تعيشُ عيشًا رغيدًا، ولم تظنَّ أنّ اللهَ سيبدّلُ حالَها إلى الخوف والجوع والقتل وزوالِ النّعم...

وذكرَ القرآنُ الكريمُ نماذج عن هؤلاء الأقوام؛ أمثال: قومِ عاد، وثمود، والمؤتفِكات، ومَدين، وقومِ فرعون... فإذا سألْنا: ما حلَّ بهؤلاء؟ يجيبنا اللهُ عزّ وجلّ عنهم بقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذنا بِذَنبِهِ فَمِنهُم مَن أَرسَلنا عَلَيهِ حاصِبًا وَمِنهُم مَن أَخَذَتهُ الصَّيحَةُ وَمِنهُم مَن خَسَفنا بِهِ الأَرضَ وَمِنهُم مَن أَغرَقنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلكِن كانوا أَنفُسَهُم يَظلِمونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

فسخَطُ الله عزّ وجلّ لم ينزل على الأممِ الصّالحةِ، وإنّما الأممُ نفسُها مَن استوجبت هذا العقاب، فمِن الطّبيعي أنْ يُؤخَذَ الظّالمُ بذنبِه، ولا يمكنُ لأيٍّ كان أنْ يوقِفَ سُننَ اللهِ تعالى في كونِه، لذلك قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذينَ مَكَروا السَّيِّئاتِ أَن يَخسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرضَ أَو يَأتِيَهُمُ العَذابُ مِن حَيثُ لا يَشعُرونَ (45) أَو يَأخُذَهُم في تَقَلُّبِهِم فَما هُم بِمُعجِزينَ (46) أَو يَأخُذَهُم عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُم لَرَءوفٌ رَحيمٌ﴾ (النّحل: ٤٥- ٤٧).

فلا يجبُ لأيّ أمّةٍ ظالمةٍ أنْ تأمنَ غضبَ اللهِ تعالى وعذابَه في أيّ لحظةٍ، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهلُ القُرى أَن يَأتِيَهُم بَأسُنا بَياتًا وَهُم نائِمونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهلُ القُرى أَن يَأتِيَهُم بَأسُنا ضُحًى وَهُم يَلعَبونَ (98) أَفَأَمِنوا مَكرَ اللَّهِ فَلا يَأمَنُ مَكرَ اللَّهِ إِلَّا القَومُ الخاسِرونَ (99) أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم بِذُنوبِهِم وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم فَهُم لا يَسمَعونَ﴾ (الأعراف: 97- 100)، فيسألُ الله تعالى هذهِ الأسئلةِ الإنكاريّة في إشارةٍ إلى أنّهم استوجبوا مكرَ اللهِ وغضبِه، ولذلك قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: "إنّ أكبرَ الكبائرِ الشّركُ بالله، والأمنُ من مكرِ الله".

ولذلك كانَ سولُ الله ﷺ ما إنْ يرى الغيمةَ أو الريحَ حتّى يُعرَفَ ذلك في وجهِه خوفًا من أن تكونَ حاملةً معها العذاب، لأنّ نقمةَ اللهِ تبارك وتعالى نتيجةً منطقيّةً للضّلال، قالت عائشة رضي الله عنها: "وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: " يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا.[11]"

[11] أخرجه البخاري في صحيحه.

ونستعرضُ الآن أهمَّ الأسبابِ التي تستوجبُ عقوبةَ اللهِ عزَّ وجلّ:

أولًا: الظُّلم:

إنّ أشدَّ أنواعِ الظُّلمِ هو الشّرك، وهذا ما وصّى لقمانُ الحكيمُ به ابنَه: ﴿.. يا بُنَيَّ لا تُشرِك بِاللَّهِ إِنَّ الشِّركَ لَظُلمٌ عَظيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وللشِّركِ أنواع؛ منها: شِركُ الهوى، وشركُ المجتمع، وشركُ النّاس، يقول ﷺ:"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ.[12]"

وهناكَ أنواعٌ أخرى للظّلم؛ مثل: ظلمِ الحقوق، ظلمِ الأطفال، ظلمِ الآباء، ظلمِ المعاقين المُوسّدينَ في البيوت الذين تقرّحت ظهورُهم، ظلمِ الأعراض، وظلمِ الوظيفةِ كالرّشوةِ والسّرقة... إلخ،

لذلك قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَتِلكَ القُرى أَهلَكناهُم لَمّا ظَلَموا وَجَعَلنا لِمَهلِكِهِم مَوعِدًا﴾ (الكهف: ٥٩)، ويقول اللهُ عزّ وجلّ أيضًا: ﴿وَكَم قَصَمنا مِن قَريَةٍ كانَت ظالِمَةً وَأَنشَأنا بَعدَها قَومًا آخَرينَ﴾ (الأنبياء: ١١)، فأيُّ قريةٍ ظلمتْ مهما كان نوعُ الظُّلمِ مُعرَّضةٌ لإهلاكِ الله تعالى لها.

ويجبُ التّنبيهِ على موضوع ردِّ المظالم، فالمسلمُ لا ينبغي له أنْ يقفَ مكتوفَ الأيدي أمامَ الظّلم إنْ كان بإمكانِه التّدخّلَ، ولا يصفّقُ للظّالم، فهذا بحدِّ ذاتِه ظلم، ومن شأنِهِ أنْ يستجلبَ عقوبةَ المُنتقِم الجبّار.

قال النّبيّ ﷺ: "إنّ الناسَ إذا رأَوا الظّالمَ فلم يأخذوا على يديهِ أوشكَ اللهُ أنْ يعُمَّهم بعقوبةٍ من عندِهِ".

ثانيًا: المُجاهَرةُ بالذّنبِ والمعصية:

قال الرّسولﷺ: "إنّ في أمّتي خسفًا ومسخًا وقذفًا، قالوا: يا رسولَ الله، وهم يشهدونَ أنَّ لا إلهَ إلّا اللهُ؟ فقال: نعم، إذا ظهرتِ المعازفُ والخمورُ ولُبِسَ الحرير."[13].

فالمقصودُ بالحديث: ستتعرّضُ مناطقٌ من أمّة الإسلامِ إلى خسفِ الأرضِ وابتلاعِها البشر، ومسخِهم قردةً وخنازيرَ، والقذفِ بالحجارةِ من السّماءِ كما حصلَ بقومِ لوطٍ - عليه السّلام- وذلك إذا ظهرتِ المغنيّاتِ والمعازفِ والخمور. وهذه الأمور تجعلُ الأمّةَ أقربَ إلى عقوبةِ اللهِ عزَّ وجلّ، لشدّةِ فجورِهم واستعراضِهم بذنوبِهم دونَ خوفٍ أو مجرّدَ حياءٍ.

[12] أخرجه البخاري في صحيحه.

[13] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه، وصحّحه الألباني.

وإنّ المجاهَرةَ بالمعاصي تطردُ مرتكبيها من رحمةِ اللهِ تعالى، لأنّ اللهَ أمرَ بالسّتر، فالمجاهِرونَ مستبعدونَ من عفوِ اللهِ، كذلك قال النّبيّ ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ."[14]

فيا للعجبِ من أولئكَ الحمقى الذين يوثّقونَ معاصيهم بالصّوتِ والصّورة!

قال الإمامُ ابنُ القيّم -رحمه الله- عن هذا الحديث: المسخُ واقعٌ في هذه الأمّةِ بلا شكّ -ما دام قالَها الرّسول ﷺ- وتقعُ في صنفينِ من النّاس؛

الأوّلُ: علماءُ السّوءِ الذين كذبوا على اللهِ ورسولِه،فهؤلاءُ طائفةٌ يقلِبُ اللهُ صورَهم كما قلبوا دينَهم.

والصّنفُ الثّاني:المجاهِرونَ؛ وهم المُتهتّكونَ بالفُسقِ والمحارم -المُبرزونَ وجوهَهم للحرامِ افتخارًا واعتزازًا به- ومَن لم يُمسَخْ منهم في دنياه سيُمسخ في قبرِه.

ثالثًا: تركُ الأمرِ بالمعروفِ، والنّهي عن المنكر:

لا يكفي أنْ تكونَ غيرَ مُفسِدٍ لتنجو، بل يجبُ أنْ تكونَ صاحبَ موقفٍ؛ أنْ تُسابِقَ إلى الخيرِ والمعروفِ، وتحُضَّ عليه وتدافعَ عنه، وأنْ تلجمَ الشّرَّ والمنكرَ، وتنهى عنه وتحاربَ أنصاره، وإلّا فسينزلُ العذابُ الذي سيأخذُ أصنافَ النّاسِ جميعًا؛ الذين باشروا بالظّلم، والذين لم يباشروا، فقط لأنّهم كانوا قادرينَ على الإنكارِ ولم ينكروا، ولذلك لا بدّ من ظهورِ المُنكِرين، الذين يتصدّون للفواحشِ وينهونَ عنها، ويأمرونَ بالحقّ وتطبيقِ شرعِ اللهِ، تأمّلْ قول الرّسول ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ."[15]

وقال الرّسولُ ﷺ أيضًا في السّياقِ ذاتِه: "مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ."[16]

وقد توعّدَ رسولُ اللهِ ﷺ الأمّةَ إذا تركتِ الأمرَ بالمعروفِ والنّهيَ عن المنكرِ بعقابٍ شديدٍ من عندِ اللهِ عزَّ وجلّ، عقابٍ -إنْ حلَّ- لا يرفعُه دعاءٌ، يقول ﷺ :"والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

---

[14] أخرجه البخاري في صحيحه.

[15] أخرجه أحمد في مسنده، وضعّفه الألباني.

[16] أخرجه أبو داود في سننه، وصحّحه الألباني.

وقدْ حذّرَ اللهُ عزّ وجلّ المؤمنينَ من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ تشملُ المُسيءَ وغيرَه، لا يُخَصُّ بها أهلُ المعاصي، ولا المُباشِرون بالذّنب وحدَهم، بل تصيبُ الصّالحينَ إذا قدِروا على إنكارِ الظّلمِ ولم ينكروه، يقولُ عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّقوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنكُم خاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥).

وإذا كَثُرَ الخُبْثُ والفجورُ في الأمّةِ حَقَّ على اللهِ هلاكُها، حتّى لو وُجد فيها الصّالحون، فهذا أمرٌ خطيرٌ يُغضِبُ اللهَ تعالى، فعن زينبَ بنتِ جحش -رضي الله عنها- قالت أنّ النّبيّ ﷺ استيقظَ ذاتَ ليلةٍ وهو يقول: "لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ" وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: "فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: "نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ"[17].

لُقّبَ ابنُ عبّاس رضي الله عنه بتُرجمانِ القرآن، إذ يقول: أمرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ ألّا يُقرّوا المنكر، فإذا ظهروا بين ظهرانيهم فيعمُّهم اللهُ تعالى بعذابٍ يصيبُ الصّالحينَ منهم ما أصابَ النّاسَ، يَهلَكون جميعًا مَهلكًا واحدًا، ويصدرونَ مصادرَ شتّى يبعثُهم اللهُ على نيّاتِهم...

والمقصودُ: إذا أيّدتِ النّاسُ أهلَ الباطلِ ولم يُبدوا أيّ ردةِ فعلٍ أو رفضٍ فسيعذّبُ اللهُ تعالى الجميعَ سواءٌ من ظلمَ أو من بقيَ يتفرّجُ تعذيبًا شاملًا، ثمّ إذا ما ماتوا حُشِرَ كلٌّ واحدٍ على ما ماتَ عليه، وعلى القَدْرِ الذي فعله، هل رضي؟ هل أنكرَ ولو بقلبه؟ -وهو أضعفُ الإيمان- هل نصحَ وأمرَ بالمعروف؟ هل كان سعيدًا؟ هل تمنّى دوامَ ذلك الحال؟...

وعندما ذكَر اللهُ عزّ وجلّ عيسى بن مريم -عليه السّلام- قال جل جلاله: ﴿لُعِنَ الذينَ كفروا من بني إسرائيلَ على لسانِ داوودَ وعيسى بنِ مريم ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾

فهؤلاءِ الذين لُعِنوا وطُرِدوا من رحمةِ اللهِ عزَّ وجلّ على لسانِ نبيهم داود وعيسى -عليهما السّلام- لأنّهم كانوا يفعلون المنكرات، ثمّ يأكلونَ بعضَهم، فلا يتآمرونَ فيما بينهم بمعروفٍ، ولا يتناهَون عن مُنكر.

وللأسف نحن -في هذه الأيّام- نعيشُ في كَمٍّ هائلٍ من الذّنوب، والمجاهرةِ فيها بكلِّ استسهالٍ، وإقبالٍ لافتٍ على المنكرات، وإحجامٍ كبيرٍ عن الخير، ويجب أنْ ندركَ خطورةَ هذا الأمر، لأنّ الأمّةَ إذا لم تتّسمْ بالصّلاحِ فستتعرّضُ لعقوبةِ اللهِ تعالى وغضبِه وإهلاكِه، يقول عزّ وجلّ: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾.

ثالثًا- كُفرانُ النِّعم:

يُعدُّ كفرانُ العبادِ لنِعمِ اللهِ تعالى سببًا رئيسًا في استحضارِ عذابِه جل جلاله، يقول اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾، وهذا مثالٌ عن القرى التي جحدَتْ بنِعم اللهِ تعالى، وبَطِرت، وأسرفَت، وبذّرَت، ولم تقدِّرِ

[17] أخرجه البخاري في صحيحه.

الخيرَ الذي كانت تعيش فيه، لم تحمدِ الرزّاقَ على أرزاقه، فانتقمَ الجبّارُ منها، فأذاقَها لِباسَ الجوعِ والخوفِ عقوبةً على ذلك.

إنّ شُكرَ اللهِ وحمدَه من أهمِّ أسبابِ سَعةِ الرّزقِ وبركتِه، والعكسُ صحيح؛ فالأمّةُ التي تُنكرُ وتزدري نِعمَ اللهِ يجرّدُها اللهُ عزّ وجلّ ممّا أعطاها، يقول جل جلاله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾،فالمعادلةُ بسيطةٌ؛ تشكرُ اللهَ عزّ وجلّ على نعمِه، وتطيعُه فيما أعطاكَ من قوةٍ أو مالٍ أو غيرِهما، يباركْ لكَ ويوسِّعْ عليك، ويمددْك بالمزيد، أمّا من كفرَ وجحدَ فلينتظرِ النّتائجَ المعاكسة.

رابعًا: الغفلةُ:

ومن المؤكّدِ أنَّ الغفلةَ والإغراقَ في الشّهواتِ واللّهوِ، والعبثِ بالمحارمِ، وإسرافِ الوقتِ فيما يُغضِبُ وجهَ اللهِ تعالى؛ كاتّباعِ الأفلامِ والمسلسلاتِ التي تفتُكُ بالأخلاق، والسّهرِ ساعاتٍ طويلةٍ في الملاهي والألعاب، والمُداوَمةِ على إرضاءِ هوى الأنفس...

كما نجدُ البعضَ -وللأسف- يدافعُ عن مبادئِ اللّهو، فيقول إنّنا خُلقنا لأجلِ المرحِ والاستمتاع، متجاهلينَ أنّه لا يوجدُ سعادةٌ دون رضا الله تعالى، فمثلُ هؤلاء سيمُدُّ اللهُ جل جلاله لهم متعتَهم، وسيصُبُّ عليهم الخيرَ من كلِّ مكانٍ صبًّا، وسيفتح عليهم كلّ أبوابِ المتعةِ التي اتّبعوها، فإذا ما فرحوا واغترّوا بها، أخذَهم الله عزّ وجلّ فجأةً، فإذا بهم آيسون منقطعون من كل خيرٍ، ومصداق ذلك قوله تعالى: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (الأنعام:٤٤)، فلاحظِ الاستدراجَ الإلهيَ لهؤلاء.

قال الحسن -رحمه الله -: "مُكِرَ بالقومِ وربِّ الكعبة أُعطوا حاجاتِهم ثم أُخِذوا".

وقال قتادة -رحمه الله-: "بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذَ اللهُ قومًا قطّ إلّا عند سكرتِهم وفي غيِّهم".

والنّبيّ ﷺ لم يخشَ على أمّتهِ الفقرَ، بل من أن تفتحَ الدّنيا أبوابَها للعباد، كما الأممِ السّابقة، فيتصارعون عليها -مثل سابقيهم- فتُهلكهم كما أهلكت مَن قبلهم، يقول ﷺ .. ".:.فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ[18].

[18] أخرجه البخاري في صحيحه.

خامسًا: العقوباتُ العامّة:

فمن أسبابِ نقمةِ اللهِ تعالى وتعذيبِه لعبادِه أنْ يبالغوا في الفواحشِ والفسوقِ والعصيان؛ كالزنى، واللّواط، والخمرِ والمخدرات، والاعتداءِ على الأعراض، وغيرها مما يُغضِب الجبّار، فكل فُحشٍ أو فجورٍ يؤدّي إلى العقوباتِ العامّة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦).

سادسًا: العملُ بالذّنوبِ والمعاصي:

إنّ من أسبابِ استجلابِ نقمةِ اللهِ عز وجل السيرُ في طرقِ الفساد، واتّباعُ الحرامِ في كلِّ خطوة، والعملُ بالذّنوب والمعاصي التي تزيل النعم، وتحل النقم، دون استحياءٍ ولا ندمٍ، وتكون على وجه الإعلان والمجاهرة، فهؤلاء يُفسِدون الحياةَ البشريّة، ويلوثون الهواءَ والماءَ والغذاء، فقد يكون كل ما ذكرنا سببَ إمساكِ السّماءِ عن المطر، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الرّوم: ٤١).

- **المَنجياتُ من عقوبةِ اللهِ تعالى:**

إذا تورّط العباد بموجباتِ عذابِ الله، فالطّرق ليست مسدودةً بعد، وهذا -والله- من فضلِ الله تعالى علينا ومنّته؛ أنْ جعلَ أمامنا فُسحةً من دينِنا رغم اقترافنا ما يُغضبه، وممّا يرفعُ عقوبتَه تعالى:

أولًا: الإيمانُ بالله تعالى وحده:

من الأسبابِ التي ترفع العقوبةَ الإيمانُ بالله وحدَه، ولاحظ أنّ كلَّ قصصِ الأنبياء في القرآن الكريم خُتمت بإنجاء الفئة المؤمنة، ومن أمثلة ذلك:

ما جاءَ في قصة سيّدنا هود -عليه السّلام- عندما بعثَ اللهُ على (عاد) العذاب قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾. (هود: ٥٨).

وفي قصة سيّدنا شعيب -عليه السلام- قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (هود: ٩٤).

وسيّدنا نوح -عليه السّلام- نجا على المركب هو والثُلةُ المؤمنةُ معه... إلخ.

فالفكرة -أخي المسلم- أنّ تحريك القلب وجعله ينبض خوفًا من الله تعالى وإجلالًا له، فالإيمانُ ليس فقط بالحبّ، وإنّما هو ما وَقَرَ في القلبِ وصدّقه العملُ.

فاعلمْ -أخي المسلم- أنّ الإيمان الصّادقُ المتبرع بعمل الجوارح، متى ما وُجِد كان الإنجاء حاضرًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠٣).

ثانيًا: الصّلاح والإصلاح:

فعليك أنْ تكون مُصلِحًا، ليس صالحًا فقط، وأنْ تنشرَ الخيرَ، وتحُضَّ عليه، وهذه نصيحةُ د. إبراهيم الخليفي -حفظه الله- حيث قال: "إنّ تربيةَ الابنِ في هذا العصر لا ينبغي أن تقفَ عند صلاحه بنفسه، فيكون ضعيفًا، مُنكفِئًا على نفسه، بل ينبغي أن يتربّى على أن يكونَ مُصلحًا، ذا دورٍ فعّالٍ، بإمكانِه قلبَ الموازين".

فلو لم يكن الإنسانُ مُصلحًا لحدث معنا ما حدثَ في قصّة (ذو الأذنين)؛ التي تحكي قصّةَ أهلِ قريةٍ يولَدون بأُذنٍ واحدةٍ، وعند ولادة أحدٍ بأذنين يُسارعون أهلُه إلى قَصّ إحدى أذنيه، حتّى يكون مُشابِهًا للبقيّة، ولمّا جاء أحدهم -وكان قد كَبُر دون أن تُقَصَّ أذنه- أصبحوا يضحكون عليه، ويُعيّرونه بأذنيه.

والشّاهد من الأسطورة: إذا لم يكن بيننا مصلحون، فسيُصبح أهلُ الخير هم الحلقة الأقلّ، وبالتالي الحلقة الأضعف، لذلك لا بدّ من أن يحملَ المرء على عاتقه مسؤوليّةَ إصلاحِ الآخرين إلى جانب صلاحِه، وعلى كلّ مُسلمٍ منّا أن يحملَ في طيّاتِ حياته مشروعًا إصلاحيًّا، لا سِيَّمَا أنّ الله تعالى أمرنا بذلك، فقد قال الله تعالى -بعد سلسلةٍ من قصص الأقوام الذين عُذّبوا-: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

(هود: ١١٦).

وإنّ صلاحَك، وصلاحَ من حولِك من أهلِ قريتِك سيجعلُ الإنجاءَ عامًّا على الكلّ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧).

ثالثًا: الصّحوة:

فإذا كانتِ الغفلةُ من أسبابِ عقابِ الله عزّ وجلّ للإنسان، فالصّحوة علاجُها، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى، كما عليه ألّا يأمنَ مكرَ الله عزّ وجلّ، ولا يضيعَ في زحام الحياة ويضيّعَ دينه معه.

فلا تجعلْ جدول أعمالِك اليوميّة مملوءًا فقط بالتّرفيه، واتّباعِ بواطل الأمور، والانغماسِ في دوائر الشّهوات، بل بالدّعوة إلى دين الله، بالمشاريع الخيريّة، بطلب العلم... واجعلِ الآية الكريمة نُصْبَ عينيك: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (الأنعام: ٤٤).

رابعًا: الإقلاعُ المباشرُ عنِ الذّنب:

ما الذي لازال يؤخّرك؟ وما الذي لازال يردّدك؟ وماذا تحتاجُ حتى تتغيّرَ وتقتربَ من ربّك الرّحيم؟ فالعمر في تناقصٍ مستمر، فماذا تنتظر؟ ومَن ذا الذي يضمن لك البقاءَ يومًا آخرَ؟ لماذا لا يزال دينُك ضعيفًا؟ ولماذا لا تزال الدّنيا عظيمةً في عينيك؟

فاشحذْ هِمّتك، وأقلِع عن ذنوبِك بشكلٍ فوريٍّ، فإذا كنتَ عاجزًا البَتّة عن تغيير من حولك، فغيّرْ نفسك، وتُبْ توبةً نصوحًا، واتّجه إلى الحقّ، وثابر في استغفار الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: 34).

ولقد كان لأمّة محمّدٍ ﷺ في هذه الآية أمانان -كما يقول ابن عباس رضي الله عنه-: الأوّل: وجودُ رسول الله ﷺ، فلا تنزلُ العقوبة على الأمّةِ الإسلاميّة؛ بسبب وجوده، والاستغفار...

ولنا في القرآن العظيم مثالٌ عن إنقاذ الكفار الذين يتوبون ويستغفرون ويستدركون أنفسَهم؛ وهم قوم النّبيّ يونس -عليه السّلام- الذين كفروا، وجاهروا، وفعلوا كلَّ منكرٍ ممكنٍ، ولم يستجيبوا لنبيّهم الكريم، حتّى خرج منهم مُغاضِبًا، بعد أن توعّدَهم بنزولِ عذابِ الله عزّ وجلّ، وما من نبيٍّ يتوعّد قومه بعذاب الله تعالى إلّا ويصيبهم، فلمّا أدركوا أنّهم على وشَك أنْ يُعَذَّبوا تابوا، وأنابوا إلى الله تعالى، ولحقوا بنبيّهم، وقالوا له لقد تبنا، لكنّه لم يصدّقهم، فركب البحر، والتقمه الحوت... وأصبح -قوم يونس- بلا نبيٍّ، فتضرّعوا إلى ربهم، واستغفروه، يقول عزّ وجلّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس: 98).

خامسًا: الدّعاءُ والتّضرُّع:

إنّ الدعاءَ إذا طُبِّقَ على أصوله ووفقَ شروطه كان من أقوى المنجيات، فقد جعله الله تعالى أقوى حتّى من أقداره.

وفي المُقابل؛ فإنّ العزوفَ عن الدّعاء أحدُ أهمِّ أسبابِ استمرارِ العذاب والهلاك والضّياع، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ

جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 42- 43).
فأقبلْ -أخي المسلم- إلى الدّعاء، وادعُ ربك تضرُّعًا وخُفيةً، ادعُ بالثّبات، بالهداية لأبنائنا وبناتنا، وشبابنا وشابّاتنا، ادعُ الله المُغيث أن يهدي كلَّ إنسانٍ حائرٍ وضالٍّ عن ربه...

سادسًا: الأمرُ بالمعروفِ، والنّهيُ عنِ المُنكرِ:

إنّ الأمرَ بالمعروف والنّهيَ عن المنكر -في الحقيقة- ليس سَوطًا لجلد النّاس، فلعلّه يكون في كلمةٍ تكتبها، أو سلسلةِ معلوماتٍ جمعتَها وقدّمتها بأسلوبٍ دَعَويٍّ بهدفِ إرشاد البعض إلى ترك البدعِ (كالاحتفالِ بعيدِ الأمّ أو رأسِ السّنة ...).

يجبُ على أيِّ مسلمٍ غيورٍ على دينه يجب أن يأخذَ على عاتقه مساعدةَ الآخرين بتنوير طرق الصّواب، وتوضيحِ طرق الضّياع، لا سيّما هذا الجيل الغارق في البدعِ وخاصّةً تلك التي على وسائل التّواصل الاجتماعيّ، كما أنّ صعوبةَ طريق الدّعوة، لا تُسوِّغُ لك أن تهجرَه وتكونَ ضعيفًا في دينك، بل دافع عنه وعن أركانه بكلِّ قوة، وهكذا دَيْدَنُ الأنبياء، فالله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم: ١٢).

ويجب التّنبيه إلى ضرورةِ استعمالِ الذّكاءِ والأسلوب النّاجع في القضايا الدّعويّة، فالنُّصح يجب أن يكون برفقٍ، ومُصاحَبًا للأدلة القاطعة المفهومة...

سابعًا: رفعُ الظُّلم:

فإذا كنتَ تمارس ظلمًا ما فأسرعْ إلى إيقافه، ولا تسمح لنفسك بالتسلّق على أكتاف غيرك، ولا ترضَ بأيِّ درجةٍ من درجات الظّلم، وإذا كنتَ من الشاهدين على ظلمٍ وقعَ أمامك فتدخّلْ إن استطعتَ، فيجب أن تكونَ مسألةُ رفع المظالم عن المظلومين مسؤوليةَ كلِّ ذي قدرةٍ، ومهما كان نوع الظّلم -من الأنواع التي ذكرناه- لأنّ الظلم من أكبر المسبّبات لعقوبة الله عزّ وجلّ، يقول جل جلاله : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).

وختامًا؛ فإنّ رحمةَ الله وسعت كلّ شيء، فلا تتوانَ في اللّجوء إليها مهما عظُم ذنبك، فعندما استسقى النّبيُّ موسى -عليه السّلام- قومَه؛ فلم تنزل قطرةَ مطرٍ لا في اليوم الأوّل ولا الثّاني ولا الثّالث، فأوحى اللهُ له أنّ من بين قومه رجلًا يبارزُ الله جل جلاله بالمعصية مدةَ أربعين سنةً، فأخبر موسى قومه أنّ السّماءَ مُنعتْ بذنبِ أحدكم، ويجب أن يخرجَ من أرضنا كي نُمطَرَ، فلمّا شعرَ الرّجل بأنّه سينكشف، غطّى نفسه في مكانٍ، وقال: يا ربّ بارزتُك بالذّنب أربعين سنةً فلم تفضحني، فلا تفضحني الآن، فنزلَ المطر، فقال سيّدنا موسى: "يا ربّ نزلت السّماء ولم يخرج الرّجل المذنب"، فأخبره الله عز وجل بما كان.

وإذا نزل بك عقابُ الله تعالى فاعلم أنّ ثمة ذنبٌ ارتُكِب، فبادرْ إلى التّوبة الفوريّة، قال علي بن أبي طالبٍ كرّم الله وجهَه: "إنّ البلاء لا ينزلُ إلّا بذنبٍ، ولا يُرفَع إلّا بتوبةٍ "،

فالذّنوب شيءٌ خطيرٌ يحرمُ الأممَ من النّعم، فإذا تورّطنا ووقعنا في الذّنب فلا ينبغي أن نبقى غارقين فيه، بل يجب أن نهمّ إلى التّوبة الصّادقة بقلوبنا وجوارحنا وبكلّ ما أوتينا من قوّة، وهذا - والله - من فضل الله ورحمته أن فتحَ لنا أبوابه رَغمَ كلّ ما نقترفه.

فاعتبرْ -أخي في الله- فمهما استمتعتَ بالذّنب فهو مُنقَضٍ، ورُبّ شهوةِ ساعةٍ أورثتْ حزنًا طويلًا، ولا تجعل لذّةَ الشّهوات والمعاصي تسوقك خلفها، فهي كاللّحم المسموم، مهما كان ظاهره جميلًا ممتعًا لذيذًا، فإنّ فيها مَقتلَك. لذلك كان النبيّ ﷺ ينهانا أن نمرَّ بديار الأمم السّابقة التي أُهلكتْ بذنوبها إلّا باكين أو مُتباكين، لأنّها أماكنُ عذاب الله القويّ، وانتقامه من الظّالمين، ولكي نعتبرَ ولا نقعَ فيما وقعوا به، ونتجنّبَ ما لم بتجنّبوه.

أسألُ الله تبارك وتعالى أنْ يجعلنا من المرحومين، وأن يجعلنا ممن ينصر دينَه وكتابَه وسنةَ نبيّه، وإنْ لم نكن أهلًا لرحمة الله عز وجل إلّا أنّ رحمته أهلٌ لنا، ونحن " شيءٌ " كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وأسألُ الله الرّحيم أنْ يغفرَ لنا ذنوبنا وخطايانا، ما سرّ منها وما عُلِم، وما كبُر منها وما صغُر، والحمد الله رب العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين نبيّنا مُحمّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها